

## أدب الضيافة ودأب اللطافة (دراسة تحليلية)

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد والبلاغة  
كلية اللغة العربية - جامعة القرآن الكريم  
والعلوم الإسلامية

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

### المستخلص:

تناول البحث أدب الضيافة ودأب اللطافة. كمنت أهمية البحث في الأخلاق والآداب السميحة التي فرضتها الضيافة على الإنسانية بما رسمته من معالم التواصل والتآخي بين الأفراد والجماعات وبما أوحته من معاني الانحدار من أم واحدة وأب واحد هما آدم وحواء، ولما وجدته الضيافة من توثيق ورواية من الشعوب والأمم، هدف البحث إلى إبراز النوايا الحسنة للأضياف من الأسر والشعوب والأمم، ودور الآثار إيجابية في الحفاظ على وجه الإنسانية، وتفعيل دور الأخلاق الحسنة وتثبيت القيم والروابط البشرية بين أفراد المجتمع. انتهج البحث المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي. خرج البحث بعدد من النتائج، لعل أهمها: أدب الضيافة من موروثات الأخلاق الإنسانية فهي سفير للأمم والشعوب، وشريك لحسن النوايا. والضيافة عبادة وعادة وتقليد، ورسالة تربوية وتكافل وحرب للجوع والعطش وماوى من التشرد. كانت نار الضيافة في الجاهلية لا تنطفئ، وكانت محل الفخر والمدح والهجاء والوعيد، والفتنة والتندر. والضيافة في القرآن والسنة من لوازم حقوق الإنسان. وأوصى البحث في خاتمته بعدة توصيات منها: التمسك بكرم الضيافة وحسن المعاملة. والالتزام بمنهاج الكتاب والسنة فهما جماع الأخلاق وفيهما بيان معاني الضيافة. والاطلاع على التراث الإسلامي والعربي للاستزادة من آداب الضيافة. كلمات مفتاحية: أدب الضيافة، اللطافة، الأدب العربي، القرآن والسنة.

### The Hospitality literature and Gentleness habitude (analytical study)

Dr. Siddiq AbdulRahman Ibrahim Musa/ Co-professor

#### Abstract:

The research dealt with the literature of hospitality and the practice of kindness .The importance of research ,in the morals and tolerant manners imposed by hospitality on humanity ,with what it drew from the features of communication and brotherhood between individuals and groups ,and what it revealed of the meanings of descent from one mother and one father ,Adam and Eve ,and what the hospitality found in documenting and narrating from peoples and nations ,the aim of the

research is to highlight the intentions Good hospitality for families, peoples and nations ,and the role of positive effects in preserving the face of humanity ,activating the role of good morals and establishing values and human ties among members of society. The research adopted the inductive, descriptive and analytical method. The research came out with a number of results, perhaps the most important of which are; Hospitality literature is one of the legacies of human morals, as it is an ambassador for nations and peoples, and a partner for good intentions. Hospitality is worship, custom, tradition, an educational message, solidarity, a war against hunger and thirst, and a shelter from homelessness. The fire of hospitality in the pre-Islamic era was not extinguished, and it was the place of pride, praise, satire, intimidation, sedition and slander. Hospitality in the Qur'an and Sunnah is a requirement of human rights. In its conclusion, the research recommended several recommendations, including: adherence to hospitality and good treatment. Adherence to the curriculum of the Qur'an and the Sunnah are the collective morals and in which they explain the meanings of hospitality. In addition, see the Islamic and Arab heritage to learn more about the etiquette of hospitality.

**Keywords:** hospitality literature, kindness, Arabic literature, Quran and Sunnah.

### تمهيد:

الضيافة موروث أخلاقي للإنسانية فهي سفير للشعوب، ومبادرة روحية ويد بيضاء، تمثل أصول الإغاثة والعون الإنساني، وهي عبادة وعادة وتقليد، ورسالة تربوية وسفير ومبعوث وترجمان للنوايا الحسنة، وهي من لوازم حقوق الإنسان في الكتاب والسنة، بما رسمته من معالم التأخي وبما أوحته من معاني الانحدار من أم واحدة وأب واحد هما آدم وحواء، والضيافة من مقومات ولوازم الرئاسة في سير الآداب البشرية.

### المقدمة:

أدب الضيافة من موروثات الأخلاق الإنسانية المنقولة عبر التاريخ البشري رسماً وفعلاً، فالضيافة سفير دائم للأمم والشعوب، وشريك أصيل لحسن نوايا وطيب النفوس، وهذا دأب وعادة وشأن اللطافة والسماحة والبشاشة والمروءة والرفق والظرافة والرقّة والحلم والوداعة والكياسة وطلاقة الوجه، وحسن الشمائل ورقة الطبع وحسن المعشر، فهذه المعاني مجتمعة تفسر الدور الأخلاقي الذي تطّلع به الضيافة في المجتمعات البشرية عبر العصور وعلى مر الأيام والتاريخ، ورسالة الضيافة من البشائر الأولى في التواصل بين بني البشر، فتاريخ الآداب وشرائع الرسل حافلة

بأساليب الضيافة وهي من آثار الكرم وإبداء النوايا الحسنة، وهذه من المؤثرات الأساسية لكفالة الاستقرار وترسيخ معاني الحب والوئام، وتفسير موضوعي لمفاهيم الروابط الاجتماعية والأسرية، ودعم مباشر للمحافظة على بناء الثقة بين العباد، ومبادرة روحية لمُد يد الأيادي البيضاء لأبناء الأسرة أو القرية أو البلد أو القارة أو العالم، فالضيافة بهذه المعاني من مبادئ الإغاثة وأصول العون الإنساني من الأعمال الطوعية، إن الضيافة تتمدد بمعانيها لتعبر عن الوحدة والتكامل والترابط الفطري الذي جبل الله عليه الإنسان، فهي لا تنفك عنشيم الإنسانية وعزائم الضمائر الحية فهي تاج على رؤوس الشعوب والقبائل تعبر عن العبادة والعادات والتقاليد، ورمز من رموز المعاملات المتفق عليها في سجلات السجاي ودواوين الأدمن محفوظات التاريخ ومرويات الكلام، ولقد أختارنا هذا البحث لتبيين أبعاد الضيافة ومعانيها ومراميها ودورها في تطوير العلائق الإنسانية بين العباد، ولم تكن الضيافة قاصرة بين فرد وفرد بل كانت رسالة كبرى بين أمة وأمة ومجتمع وآخر ودولة وأخرى، وهي بذلك عظة وتربية بين جيل وآخر وسالف وخالف وقديم وحديث، فهي من صميم تعاليم الإنسانية ومن أعلى راياتها المحمولة بالتواتر من بني الإنسان، فهي تحارب الجوع والعطش وتوفر المأوى، وهذا من أدب الطوارئ الذي شكل له العالم اليوم جمعيات ومؤسسات طوعية تحارب الجوع وتقدم المأوى بأرقى أساليب اللطافة الإنسانية، وهذا البحث يؤصل لتلك السمات والأصول المستفادة من دروس أدب الضيافة ودأب اللطافة، ولقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ونتائج وتوصيات وزيلته بالمصادر والمراجع، وكان المبحث الأول بعنوان: الضيافة في الشعر والنثر، والمبحث الثاني بعنوان الضيافة في القرآن والسنة.

### الضيافة في الشعر والنثر:

حفلت الآداب البشرية بمعاني الضيافة فهي تعبر عن السلوك الرسمي والشعبي لتلك الشعوب والقبائل وتفاوتت تلك المعاملات بين العبادات والعادات والتقاليد، والضيافة من صميم الأخلاق الحسنة، فهي لإكرام الضيف وإعانتهم على سبل الراحة مما يحتاجه الإنسان المقيم من جهة، ولإبراز الدور الاجتماعي للضيافة للتحلل من التقصير في هذا الجانب الذي يعد من العيوب الإنسانية من جانب آخر، ونقف عند معاني الضيافة في الشعر العربي أولا ويلاقينا في هذا الجانب الشاعر الجاهلي عمرو بن الأهتم، في قوله:

|                                        |                                                        |
|----------------------------------------|--------------------------------------------------------|
| لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابٌ | غَيْرُ طَعْنِ الْكَلَى وَصَرْبِ الرَّقَابِ             |
| إِذْ جَرَيْنَا فُشْرَهُمْ وَهَلَالًا   | وَأَبْرَأَ قَبِيلَةَ ابْنِ الْجُبَابِ                  |
| وَأَفْضَيْنَا دُبُونَنَا فِي عَقِيلٍ   | وَشَفَيْنَا غَلِيلَنَا مِنْ كِلَابِ                    |
| ورددناهاهم إلى حرّتهم                  | حيث لا يأكلون غير الضباب                               |
| نَزَلُوا مَنْزِلَ الضَّيَافَةِ مِنْهَا | فَقَرَى الْقَوْمَ غَلْمَةُ الْأَعْرَابِ <sup>(1)</sup> |

هذا الشاعر ذكر الضيافة في آخر بيت ولكن يقصد من الضيافة هنا مقابلة الأعداء من القبائل

بما يستحقون من الذل والهوان، ولذلك جاء قوله فقرى القوم غلمة الأعراب، أي غلمانهم وولدانهم دون ساداتهم وأمرائهم، ويدل على ذلك الأبيات الأوائل المذكورة قبل ذلك، والتي توعد فيها القبائل، قيس وقشير

وابن الحباب، وعقيل وكلاب، ومن عادة العرب أن تفخر بغلمانها وصباياها، ويؤيد ذلك قول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم عندما قال في معلقته: وإذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبارة ساجدينا، وهذا السيل الجرار من تلك الأبيات التي حوتها معلقة عمرو بن كلثوم كان سببها الضيافة، لقد جاء في كتاب أشعار الشعراء الستة الجاهليين: أن عمرو بن هند الملك كان جباراً متكبراً مستبداً أراد إذلال عمرو بن كلثوم وإهانته ويضمّر ذلك في نفسه، وأنه كان جالساً يوماً مع ندمائه، فقال لهم: «هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمي هند؟ فقالوا نعم، أم عمرو وبن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا لأن أباه مهلهل بن ربيعة وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلمها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه، وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر المشهور وكانت أم ليلى بنت مهلهل هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس وبينهما هذا النسب، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزيّر أمه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وكان عمرو بن هند أمر أمه أن تحي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بطرف، فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فأعادت عليها فصاحت ليلى: «واذلاه، يا لتغلب!» فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرقي وجهه فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس ابن هند وقتله، وكان ذلك نحو سنة 569م ونادى عمرو بن بني تغلب فانتهبوا مافي الرواق وساقوا نجايبه وساروا نحو الجزيرة وجاشت نفس ابن كلثوم وحمى غضبه وأخذته الأنفة والنخوة فنظم بعض معلقته في هذه الحادثة، يصف فيها حدثه مع ابن هند ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة<sup>(2)</sup>، ومن ذلك قوله:

|                         |                                     |
|-------------------------|-------------------------------------|
| أبا هند فلا تعجل علينا  | وأنظــــرنا نخبرك اليقينا           |
| بأننا نورد الرايات بيضا | ونصدرهن حمرا قد رونا                |
| ألا لا يجهلن أحد علينا  | فنجهل فوق جهل الجاهلينا             |
| بأي مشيئة عمرو بن       | هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا        |
| تهددنا وأوعدنا رويدا    | متى كنا لأمك مقتونيا                |
| على آثارنا بيض حسان     | نحاذر أن تقسم أو تهونا              |
| إذا لم نحمهن فلا بقينا  | لشيء بعدهن ولا حيننا <sup>(3)</sup> |

الفخر عند العرب كان مقرونا بالشجاعة والكرم والضيافة، وفي البيان والتبيين، إن العرب تجعل الحديث والبسط، والتأنيس والتلقي بالبشر، من حقوق القرى ومن تمام الإكرام به، وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة، وقال شاعرهم، وهو حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان يا أم منذر إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

هل أبسط وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري<sup>(4)</sup>

والمعنى: سلي أضيافي عن أخلاقي معهم، وكيفية إكرامي لهم في مثواهم، وهل أُنْدرج في مدارج الخدمة وأتوصل بأنواع التودد والقربة من ابتداء نزولهم، إلى انتهاء ذهابهم، وكانت العرب تحب الأضياف وتحترم حق الضيافة فقبل تقديم الطعام يقابلون الضيف بالبشر والترحاب وطلاقة الوجوه والأنس، وكانوا يثقون بأن ذلك يعود إليهم بالثناء والحمد من حفظ الجميل من قبل الأضياف، وفي ذلك يقول الشاعر، غربال بن مجمّع الحنفي:

ألا ربّ ضيفٍ طارقٍ قد قرّيته      وأنسّته قبل الضيافة بالبشر  
وجدتُ له فضلاً عليّ بقصده      إليّ يراني موضعَ الحمد والأجر  
فرّودته مالا يقلُّ بقاؤه      وزوّدي شُكراً يدوم على الدهر  
وقد ربحْتُ عندي تجارته ما جد      وجودُ فيعتاضُ الثناء من الوفّر<sup>(5)</sup>

ويحدث النزاع بين الأفراد في أيهم أكثر ضيافة ففي المحاسن والأضداد: تنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر إعرابي في الضيافة فقال الإعرابي: نحن أقرى للضيف. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن أحداً ربما لا يملك إلا بغيراً فإذا حل به ضيف نحره له، فقال له الأعجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم، قال: وما ذاك؟ قال: نحن نسمي الضيف مهمان ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا به، وقال بعض الحكماء: بلغ الجود من قام بالمجهود، وقيل الجواد من لم يرض.<sup>(6)</sup> وكانت العرب توقد للضيافة والقرى نارا حتى يراها القريب والبعيد وكانت تلك عادات العظماء من عليّة القوم، وفي ذلك يقول شاعرهم مهلهل:

نبئت أن النار بعدك أوقدت      واستب بعدك يا كليب المجلس  
وتكلموا في أمر كل عزيمة      و كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وكان كليب وائل لا توقد مع ناره للضيفان ناراً في أحماه، وفيما يقرب من منازل وأوطانه، بل يتفرد بذلك لا مباري له ولا مشارك؛ وكان إذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يجاذب غيره أو يفارقه أو يسابه، إعظماً لقدره وإجلالاً لشأنه وأمره، فيقول مهلهل البيتين أعلاه على وجه التحسّر<sup>(7)</sup>. وفي هذا الخبر ترغيب في إصافة الضيف وقضاء حق ضيافته، ودلالة على وجوب حقه ورفعة منزلة مضيفه، ولم تزل الأمم على اختلاف أديانها وآرائها، وأخلاقها وعاداتها، تستحسن الضيافة وترغب فيها وتتواصى بها، وتتحاض عليّها، وتتعاير بالرغبة عنّها، والتفريط في المسابقة إليها، وللعرب الخصوصية في هذا الأمر<sup>(8)</sup>.

النص السابق يبين الضيافة بين الأمم وبيان شأنها ومكانة وقعها بين الناس، وفي ذلك أقوال كثيرة منها قول حاتم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة أشياء، فإنها من السنة: إطعام الضيف إذا حلّ، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب، وقال: من أطعم الضيف لحماً وخبز حنطة وماء بارداً فقد تمّ الضيافة، والمزور المرائي إذا ضاف إنساناً حدثه بسخاوة إبراهيم الخليل، وإذا ضافه إنسان حدثه بزهد عيسى بن مريم، وقال ميمون بن ميمون: من

ضاف البخيل صامت دأبته، واستغنى عن الكيف، وأمن التَّخمة، وقال بعض السلف الصالح: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليّ من عتق رقبة، قال الأعمش: كان الربيع بن خيثم يصنع لنا الخبيص ويقدمه ويقول: اللهم اغفر لأطبهم نفساً، وأحسنهم خلقاً، وارحمهم جميعاً.<sup>(9)</sup> يقول عروة:

وما أخدمت ناراً لنا دون طارقٍ      ولا ذمنا في النازلين نزيل  
وأيا منّا مشهوراً في عدونا      لها غرر معلومةٌ وحجول  
وأسيافنا في كل غربٍ ومشرقٍ      بها من قراع الدار عين فلول  
أراد بقوله ناراً لنا نار الضيافة يقول: نديم إيقادها فلا تطفأ دون طارق ليلٍ، والضيف إذا فارقنا حمدنا ولم يذمنا، لحسن توفرنّا عليه، واحتفالنا عند سوق الخير إليه، والنزيل، كالرفيق والجليس والأكيل، والطروق يختص بالليل، وسمي النجم طارقاً لذلك، يقول: وقعاتنا مشهورةٌ في أعدائنا معلومةٌ، فهي بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل، يعرف بلاؤنا فيها، وحسن آثارنا عند النهوض لها<sup>(10)</sup>. الاعتزاز بنار الضيافة للفخر وبيان المنزلة والظهور على الآخرين.  
قال الشاعر:

دار الضيافة كانت أنس وافدكم      واليوم أوحش من رسم ومن طلل  
أبكي على مأثرات من مكارمكم      حال الزمان عليها وهي لم تحل  
أسبلت من أسفي دمعي غداة خلت      رحابكم وغدت مهجورة السبل  
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم      تشكو من الدهر حيفا غير محتمل  
وكسوة الناس في الفصلين قد      درست ورث منها جديد عندهم وبلي  
وأول العام والعيدين كم لكم      فيهنّ من وبل جود ليس بالوشل  
والأرض تهتزّ في يوم الغدير كما      يهتز ما بين قصريكم من الأسل  
والخيل تعرض في وشي وفي شية      مثل العرائس في حلي وفي حلل  
وما حملتم قرى الأضياف من سعة      الأطباق إلا على الأكتاف والعجل<sup>(11)</sup>

والشاعر في هذه الأبيات يحفظ للممدوح حقه في الضيافة والكرم ويبدأ شعره بالضيافة ويختمه بها، ويتخلل الأبيات عدد من معاني المدح التي تعتبر من ملحقات الضيافة عند العرب، ونجد الضيافة تمتد إلى الشعوب الأخرى غير العربية، فهي محل إعجابهم، ومن ذلك ما حققه صاحب كتاب الأدب المقارن من جامعة المدينة لقوله: كان لما لقيه الرحالة الفرنسيون من كرم الضيافة وحسن الاستقبال أثناء رحلاتهم في الشرق أثر كبير في إضفاء كثير من الصفات الحميدة على رجال الشرق من المسلمين، فالشرق في أدب القرنين السابع عشر والثامن عشر كريم الضيافة جميل الطلعة، خصب الخيال، لبيب فيه طموح يشوبه بعض غرور، وهو طيب الشمائل، مهذب الخلق، محمود العشيرة، ثم إنه متسامح لا تعصب عنده، يحترم حرية غيره في الاعتقاد، مهما اختلف معه في العقيدة، وقد لاحظ الفرنسيون وغيرهم من الأوروبيين هذه السمة في الشعوب الشرقية؛ لأن أوروبا في ذلك الوقت قد استطاعت أن تقهر حكامها وأن تجبرهم على الخضوع لمنطق

الديمقراطية، فخلعوا ثوب الاستبداد.<sup>(12)</sup>

ومن أحسن ما قيل في نار الضيافة قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في بقاع يحرق  
تشبّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّق  
رضيعي لبان ثدي أمّ تقاسما بأسحم داج عوض لا نفرق<sup>(13)</sup>

هذا الشاعر من الشعراء الجاهليين الكبار يقرن نار الضيافة بالفخر كعادة الكبار في الكرم واحترام الغريب وهذه العادات الإنسانية الجميلة مشتركة مع العرب وغيرهم من الأمم وذلك في تعاملات العرب مع الملوك من حولهم وفي صبح الأعشى: وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك وكان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك خرج بعض أكابر الأمراء للقاءه، وأنزل بقصور السلطان وإن كان دون ذلك أنزل دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر رتبته<sup>(14)</sup>. هكذا كانت الضيافة سفيرا بين الأمم والملوك والأمراء. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحت اجتنبته، وأما آداب المضيف فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ قال الشاعر:

إذا المرء وافي منزلا منك قاصدا قراك وأرتمته لديك المسالك  
فكن باسمها في وجهه متهلّلا وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك  
وقدّم له ما تستطيع من القرى عجولا ولا تبخل بما هو هالك  
فقد قيل بيت سالف متقدّم تداوله زيد وعمرو ومالك<sup>(15)</sup>

هذا الكلام نثره وشعره يبين أن الضيافة مبعوث الأخلاق وسفير الإنسانية وترجمان الأخلاق الكريمة.

وإذا كانت الضيافة مكان مدح بين الأمم فإنها محل هجاء كذلك بين الخصوم، وإن أهجى بيت قالته العرب كان بسبب الضيافة وهو قول الأخطل في هجاء جرير:

قومٌ إذا استنبج الأضيافَ كلبهم قالوا لأهمهم بولي على النار  
فتمسك البول بخلا لا تجود به ولا تبول لهم إلا بمقدار  
والخبز كالعنبر الوردى عندهم والقمح سبعون إردباً بدينار  
ما زال فينا رباطُ الخيل معلمة وفي كليبٍ رباطُ اللؤم والعار<sup>(16)</sup>

لأنه قد جمع فيه ضروبا من الهجاء: فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدي بها الضيفان، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة، ورماهم بالبخل بالخطب، وأخبر عن قتلها وأن بولة تطفئها، وجعلها بولة عجوز، وهي أقل من بولة الشابة، ووصفهم بامتهان أهمهم وابتذالها في مثل هذه الحال، يدل بذلك على العقوق والاستخفاف، وعلى أن لا خادم لهم، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء، ورماهم في هذا البيت بالمجوسية؛ لأن المجوس لا ترى إطفاء النار بالماء.<sup>(17)</sup>



قال الشاعر:

تَقْرِي صَوَارْمُهُ السَّاعَاتِ عَبْطَ دَمٍ      كَأَمَّا السَّاعُ نُزَالٌ وَقَفَّالٌ  
تَجْرِي النُّفُوسُ حَوَالِيهِ مَحَلَّطَةً      مِنْهَا عُدَاةٌ وَأَغْنَامٌ وَأَبَالٌ  
لَا يَحْرِمُ الْبُعْدُ أَهْلَ الْبُعْدِ نَائِلَهُ      وَغَيْرُ عَاجِزَةٍ عَنْهُ الْأَطْيَفَالُ<sup>(18)</sup>

المعنيان أسيافه تنحر للضيافة وللقرى فتسيل الدماء جارية خلال ساعات الزمان، وجموع الأضياف منهم من يقصد فينزل، ومنهم من ينصرف فيقفل، والقريب والبعيد لا يحرم نائله وعطاؤه حتى الأطفال يقولون: إن الممدوح يعم ساعات زمانه بدماء يسفكها فيها، وأنفس يتلفها عند ورودها، وكل هذا جاء لتأكيد معاني الضيافة وآدابها. وللضيافة نوادر مع البخل منها ما جاء في مطالع البدور: أن ضيفانزل على بخیل في ليلة وكان جائعاً فقدم له طعاماً فأقى على آخره ولم يغادر منه شيئاً، فحلف البخیل أن لا يبيت الضيف عنده فقال الضيف يا أخي أصبر عليّ إلى الفجر، فقال لا وليال عشر فقال أما سمعت أن الضيافة ثلاث فقال البخیل لا وحق الواحد لا يبيت عندي ثلاثاً من يأكل بالخمس.<sup>(19)</sup>

فإذا كانت الضيافة ولوازمها مدعاة للجبين والبخل فهي كذلك مدعاة للجدود والسخاء والسرور، فقد نزل الشافعي بمالك بالزعفراني ببغداد، فكان يرقم كل يوم في رقعة ما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي يوماً وألحق لونا آخر، فعرف ذلك الزعفراني فأعتق الجارية سروراً بذلك.<sup>(20)</sup>

فالبخل والسخاء صفتان لا تجتمعان في شخص واحد ومع ذلك فلكل إنسانا اختيار الطريقة التي يراها مناسبة لإكرام ضيفه، وجاء في فص الخواتم: ولا يتعين في الضيافة وغيرها من الولائم طعام، بل الخيرة إلى المضيف أو المولم، وينبغي أن يعمل ما يليق بمضيفه وحاله.<sup>(21)</sup> لقد جاءت معاني الضيافة وآدابها لتحمل معاني الحفاوة والبشر والسرور وحسن الاستقبال فكانت سفيرا للإنسانية، ومبعوثاً للأخلاق الطيبة، وترجمانا للنوايا الحسنة، والضيافة من شأن الكبار في الجاهلية، فكانت لا تنطفئ نارها ولا تندثر آدابها، وهي رسالة إنسانية بين الشعوب والقوميات والأمم والملوك والأمراء والرؤساء والعلماء والأفراد، وكانت الضيافة سجلاً تاريخياً لحفظ الجميل من الفعال والأقوال، ومحل تنافس بين الناس، ولقد امتدت معانيها إلى دول العالم بآدابها وأساليبها، وكانت الضيافة محل الفخر والمدح والهجاء والوعيد، وكانت سبباً للفتنة والاختلال والإحتراب، كما كانت محل التندر والتسلية.

### الضيافة في القرآن والسنة:

الضيافة من أخلاق المسلمين العالية وهي نابعة من الكرم الذي حث عليه الشرع في الكتاب والسنة، ولقد حفلت سير السابقين برفع أنواع الضيافة وكریم طباع الإنسانية، ولقد أخذت طرق الضيافة وأساليبها مواقف متعددة، وغلب على تلك الألوان الإنسانية طابع البياض فكانت الضيافة راية بياض تدل على بياض النفوس وصفائها، وهي علم أبيض فوق المجتمعات البشرية سارت عليه النظم الإدارية للمنظمات الطوعية والإنسانية، وفي هذا المبحث نقف عند معاني الضيافة



في الكتاب والسنة ونقف أولاً مع القرآن العظيم، قال الله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي صَيْفِي) (22) يَقُولُ: فَاحْشُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ فِي إِيْتَانِكُمْ الْفَاحِشَةَ الَّتِي تَأْتُونَهَا وَتَطْلُبُونَهَا، وَلَا تُخْزُونِ فِي صَيْفِي، وَلَا تُدْلُونِي بِأَنْ تَرْكَبُوا مَنِي فِي صَيْفِي مَا يَكْرَهُونَ أَنْ تَرْكَبُوهُ مِنْهُمْ، وَالصَّيْفُ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَعْنَى جَمْعٍ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْوَاحِدَ وَالْجَمْعَ صَيْفًا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ كَمَا قَالُوا: رَجُلٌ عَدْلٌ، وَقَوْمٌ عَدْلٌ<sup>(23)</sup>. والأضياف هنا محل حماية وإكرام وهذا خلق المرسلين، فبني الله دافع عن ضيفه وهذا من حفظ حقوق الضيف وإجارته وهذا من مبادئ حقوق الإنسان التي تعد من أدب الضيافة.

قال الله تعالى: (وَبَنَّهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ \*) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (\*) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (\*) قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَى أَنْ مَسْنِي الْكِبَرِ فِيمَ تُبَشِّرُونَ (\*) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (\*) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ<sup>(24)</sup>، معنى قَوْلُهُ تَعَالَى: وَبَنَّهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ أَي: عَنْ أَضْيَافِهِ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالصَّيْفُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْإِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِيُبَشِّرُوا إِبْرَاهِيمَ بِالْوَلَدِ وَيُهْلِكُوا قَوْمَ لُوطٍ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ: إِبْرَاهِيمُ، إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، خَائِفُونَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا طَعَامَهُ، قَالُوا لَا تَوْجَلْ لَا تَخَفْ، إِنَّا نُبَشِّرُكَ، بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، أَي: غُلَامٍ فِي صَغَرِهِ عَلِيمٍ فِي كِبَرِهِ يَعْنِي إِسْحَاقَ، فَتَعَجَّبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ أَمْرَاتِهِ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي أَي: بِالْوَلَدِ عَلَى أَنْ مَسْنِي الْكِبَرِ، أَي: عَلَى حَالِ الْكِبَرِ قَالَهُ عَلَى طَرِيقِ التَّعَجُّبِ، فِيمَ تُبَشِّرُونَ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ تُبَشِّرُونَ، قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ أَيِ بِالصِّدْقِ، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ، قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ، أَي: يَبَاسُ، مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ، أَي: الْخَاسِرُونَ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَبِيرَةٌ كَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِهِ<sup>(25)</sup>. فالأضياف في الآية الكريمة هم أضياف الرحمن من الملائكة المكرمين والله جل وعلا هو الذي يتولى ضيافة عباده من الملائكة، ولقد أرسلهم الله بالبشرى والمواساة إلى نبيه إبراهيم، فهذه وفادة الله لأضيافه وهي من خير الضيافات.

قال الله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)<sup>(26)</sup> والمعنى: حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ، اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ «مَائِلٌ فَاقَامَهُ الْخَضِرُ بِيَدِهِ قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا، وَلَمْ يُطْعَمُونَا، لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْضَ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا) وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْقَرْيَةِ فَقِيلَ: هِيَ أَبْلَةٌ، وَهِيَ أَبْخَلُ قَرْيَةٍ وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ وَقِيلَ: أَنْطَايَةُ وَقِيلَ: بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ، وَقِيلَ هِيَ بَاجِرُوَانِبْنِاحِيَةَ أَدْرَبِيحَانُوقِيلَ إِنَّهَا بَرْقَةُ وَقِيلَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الرُّومِ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ، وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ النَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ سَفَرًا هَجْرَةً فَوَكَّلَ إِلَى الْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ بِالْقُوَّةِ وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى سُؤَالِ الْقُوتِ، وَأَنَّ مَنْ جَاعَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْلُبَ مَا يَرُدُّ جُوعَهُ.<sup>(27)</sup>

بينت الآية الكريمة أن الضيافة ثابتة في حق من خرج في سبيل الله، فهو أحق بالضيافة

والإكرام، ومع ذلك فإن بعض الناس يفوت عليه كرم الضيافة وهذا أمر يعود إلى صفات الإنسان إذا كانت نفسه تنطوي على البخل، ولا يمنع إمساك الكرم من بذل عمل الخير والمعاملة بالحسنى مثل ما فعل نبي الله موسى في بناء الجدار الذي في القرية، فالنفس الكريمة تقابل الإحسان بالامتنان وترد على المنع والحرمان بالإكرام والإحسان.

قال الله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) (\*) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (\*) فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (\*) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (\*) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (\*) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ<sup>(28)</sup>

جاء في المعنى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ، قِيلَ: سَمَّاهُمْ مُكْرَمِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَلَائِكَةً كِرَامًا عِنْدَ اللَّهِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ أَكْرَمَ الْخَلِيقَةِ، وَضَيْفُ الْكِرَامِ مُكْرَمُونَ، وَقِيلَ: لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْرَمَهُمْ بِتَعْجِيلِ قِرَائِهِمْ، وَالْقِيَامَ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمَّاهُمْ مُكْرَمِينَ لِأَنَّهُمْ جَاؤُوا غَيْرَ مَدْعُودِينَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، أَيْ غُرَبَاءُ لَا نَعْرِفُكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ فِي نَفْسِهِ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا نَعْرِفُهُمْ وَقِيلَ: إِنَّمَا أَنْكَرَ أَمْرَهُمْ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَنْكَرَ سَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَفِي تِلْكَ الْأَرْضِ.<sup>(29)</sup>

لقد جاءت مواقف الضيافة في أجلى صورها بعد أن قابل نبي الله إبراهيم أضيافه بوجه طلق وخدمهم بنفسه وهذا أعظم أنواع القرى لأنهم غرباء فشمروا عن ساعد الجد لتقديم يد العون لهم حتى لا يشعروا بالغرابة وقدم لهم الطعام وهو عجل مشوي مما بدل على أنه ذبح لهم، مع أنهم دخلوا عليه دون استئذان، وفوق ذلك كله يقابلهم بالإحسان والإيمان، فالضيافة حق واجب في إكرام الوفادات من أصحاب الفضل.

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ) (\*) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (\*) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ (\*) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ<sup>(30)</sup>

جاء في المعنى: وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ قَصَدُوا فَجُورَ بِأُضْيَافِهِ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَمَسَخْنَاهَا وَسَوَّيْنَاهَا كَسَائِرِ الْوَجْهِ، أَيْ: صَارَتْ وَجُوهُهُمْ صَفِيحَةً وَاحِدَةً لَا ثَقْبَ فِيهِ، رُوي أَنَّهُمْ لَمَّا قَصَدُوا دَارَ لُوطٍ، وَعَالَجُوا بِأَبْهَا لِيَدْخُلُوا، قَالَتِ الرُّسُلُ لِلْوَط: خَلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّخُولِ، فَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ. وفي رواية: لَمَّا مُنَعُوا مِنَ الْبَابِ تَسَوَّرُوا الْحَائِطَ، فَدَخَلُوا، فَصَفَعَهُمْ جَبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ فَتَرَكَهُمْ عُمِيًّا يَتَرَدَّدُونَ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْبَابِ، فَأَخْرَجَهُمْ لُوطٌ عُمِيًّا، وَقَلْنَا لَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، أَوْ بِلِسَانِ الْحَالِ: فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ أَيْ وَبِالْإِنْذَارِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الطَّمَسُ فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا أُنْذِرُوا بِهِ.<sup>(31)</sup>

بينت الآيات أن الأضياف الصالحين محفوظين برعاية الله لهم، وكذلك أصحاب النوايا الصالحة فإن الله معهم، وأن الله يؤيد المضيف وينصره إذا صدق الله في نواياه وأراد بعمله

الإصلاح في الأرض، فهذه القصص والعبر من القرآن العظيم تبين تأييد المولى جل وعلا للضيافة التي أمر بالذكر الحكيم بتأصيلها.

جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، أَلَّا فَلْيَرْتَحِلِ الضَّيْفُ، وَلَا يَشُقَّ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ).<sup>(32)</sup> جاء الحديث مؤصلا للضيافة الشرعية وحدها بثلاثة أيام وإذا زاد المضيف عن ذلك فهذا من الفضل والإحسان، وفي هذا تكريم للإنسان وحفظ حق إنسانيته فالشرع الحنيف ممثلا في السنة النبوية حفظ حقوق الإنسان وكفلها، ولذلك يأتي جانب اللطافة من الأضياف بعدم تحميل المضيف ما لا يطيق، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم منها (ألا فليرتحل الضيف) ولا يشق على أهل البيت، مما يبين أن الاستضافة يكون فيها المشقة من أكرام الضيف وإنزاله المنزلة التي تليق به وبالإسلام، فحقا إن الضيافة بينت أن الإسلام هو دين حقوق الإنسان.

جاء في السنن الكبرى: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا، مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا فِي سَفَرٍ فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَعَرَضَ لِنَسَانٍ مِنْهُمْ فِي عَقْلِهِ أَوْ لُدْعٍ، فَقَالُوا لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ أَنَا، فَأَتَى صَاحِبَهُمْ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ قَبْرًا، فَأَعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَقِيتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَضَحِكَ وَقَالَ: (مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟) ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا الْغَنَمَ، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ»<sup>(33)</sup>

أوضح الحديث أن الضيافة أمر متعارف عليه بين الأمم وأن من ينكرها تكون وبالا عليه، فعندما تخلى صحاب الحي عن إنسانيتهم وحرّموا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من الضيافة، تعلموا في بقية يومهم أسباب الانسانية عندما احتاجوا إلى معالجة سيدهم فبادروا بالبحث عن العلاج عند الصحابة، فقدموا لهم العلاج مقابل حق الضيافة الذي منعه فاضطروا لدفع الثمن أكبر من ثمن أدب الضيافة.

جاء في صحيح الإمام مسلم: عَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْخَزَاعِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْمَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُؤْمَهُ؟ قَالَ: يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ).<sup>(34)</sup> ومن مفهوم الحديث أن المضيف إذا أكرم ضيفه ليوم وليلة فقد أدى واجب الضيافة والإكرام، وهذه رخصة عظيمة رفع بها رسول الله الحرج عن المعسرين فتلك الضيافة في حقهم كما عند أصحاب المال والسعة، والحديث يلزم الضيف حدوه الأدب والاحترام والتقدير فلا يكون عبئا ثقيلا على مضيفه ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فإن ارتحال الضيف عن مضيفه من دواعي السرور لأن بذهاب الضيف يزول الهم والمأثم عن صاحب الدار، وفي ذلك حفظ لماء وجهه، فالضيافة رسول الإنسانية. جاء في كتاب المجالسة وجواهر العلم: عن عيسى بْنِ يَزِيدَ: قَالَ: حَرَجَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي طَلَبِ ضَالَةٍ لَهُ، قَالَ: فَسِرْتُ أَيَّامًا فِي طَلَبِ ضَالَّتِي، فَأَوَانِي اللَّيْلُ إِلَى بِنَاءٍ، فَسَلَّمْتُ، فَدَدْتُ عَلَيَّ

امْرَأَةُ السَّلَامِ، فَقَالَتْ: مَنِ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنِّي طَالِبُ ضَالَّةٍ، وَإِنِّي أَحْتَاجُ إِلَى قِرَى قَالَتْ: أَقِمْ عِنْدَنَا؛ قَالَ: يَأْتِي إِبْنُنَا وَغَنَمُنَا فَاضْطَجَعْتُ، فَلَمَّا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ إِذَا بِرَجُلٍ يَسُوقُ أَبْعِرَةً وَغَنَمًا، فَلَمَّا غَشِيَنِي؛ قَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ: بَاغِي ضَالَّةٍ وَضَيْفٌ فَقَالَ: مَا عِنْدَنَا ضِيَاةٌ، إِنْ كُنْتُ تُرِيدُ الضِّيَاةَ؛ فَأَمَّا مَكَ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ النَّبَاتِ؛ فَوَرَاءَكَ قَالَ: قُلْتُ: مَا بِي مِنْ ذَهَابٍ هَذِهِ السَّاعَةَ أَمَامِي وَلَا وَرَائِي، وَلَكِنِّي أَمَكْتُ هَا هُنَا حَتَّى أَصْبَحَ فَلَمَّا دَخَلَ بَيْتَهُ؛ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: اخْلُبْ لَضَيْفِنَا فَقَالَ: فَإِنَّا وَعِيلَانَا وَأَوْلَادُنَا أَحَقُّ بِهِ قَالَتْ: وَاحْتِيبَاهُ! وَجَعَلَتْ تَدْخُلُ وَتَخْرُجُ إِلَى الصَّبَاحِ، فَعُدْتُ غَادِيًا، فَأَذْرَكَنِي الْمَيْبُتُ إِلَى بِنَاءٍ آخَرَ، فَسَلَّمْتُ، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: مَنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ: بَاغِي ضَالَّةٍ وَطَالِبُ قِرَى قَالَتْ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ قُلْتُ: لَكِنَّ الْأَرْضَ لَا تَمْنَعِينِي مِنْهَا وَاضْطَجَعْتُ، وَجَاءَ زَوْجُهَا يَسُوقُ غَنِيمَةً وَأَبْعِرَةً، فَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ أَذْرَكَنِي الْمَيْبُتُ وَأَنَا أَطْلُبُ ضَالَّةً لِي فَقَالَ: فِي الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، أَصَبْتَ مَيْبُتًا وَقِرَى وَدَخَلَ الرَّجُلُ؛ فَهَارَتْهُ امْرَأَتُهُ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيَّ قِرَى، فَضَحِكْتُ، فَقَالَ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قُلْتُ: بَعْضُ مَا ذَكَرْتُ. فَقَالَ: لِتُخْبِرَنِي. فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا لَقِيتُ وَبِمَا صَنَعَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَمَا سَمِعْتُهُمَا تَقُولُ، وَمَا سَمِعْتُكَ هَذِهِ قَالَ: فَضَحِكَ، فَقَالَ: تِلْكَ وَاللَّهِ أُخْتِي، وَهَذِهِ أُخْتُهُ.<sup>(35)</sup>

هذه القصة من النوادر والطرف في شأن الضيافة التي لا يتأتى تحملها إلا لسخي كريم، فسجاي البشر تختلف من شخص لآخر، ولكن الإيمان إذا وقر في القلب كان لصاحبه نورا يقوده إلى البر وفعل الخير، وإن معاني الإنسانية من معاني الإيمان بالله، فيجب ألا يحسب سوء الأخلاق من صفات الإنسانية السليمة.

جاء في شرح السنة: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كَانَ فِينَا رَجُلٌ نَازِلٌ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَامٌ، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: اجْعَلْ لِي طَعَامًا لَعَلِّي أَدْعُو رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمْ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَتَبِعَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلِ: (إِنَّكَ دَعَوْتَنِي خَامِسَ خَمْسَةٍ، وَإِنَّ هَذَا تَبِعَنِي، فَإِنْ أَذْنَتْ لَهُ وَإِلَّا رَجَعَ)، قَالَ: لَا، بَلْ أَذِنَ لَهُ، قَالَ الْإِمَامُ: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ طَعَامُ الضِّيَاةِ لِمَنْ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا، وَقَدْ رَوَى أَنَّ سَلْمَانَ دَعَا رَجُلًا إِلَى طَعَامِهِ، فَجَاءَ مِسْكِينٌ فَأَخَذَ كِسْرَةً فَنَآوَلَهُ، فَقَالَ سَلْمَانُ: إِنَّمَا دَعَوْنَاكَ لِتَأْكُلَ، فَمَا رَغِبْتُكَ أَنْ يَكُونَ الْأَجْرُ لغيرِكَ، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ طَعَامٌ وَخُلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ يَتَخَيَّرُ، إِنْ شَاءَ أَكَلَ، وَإِنْ شَاءَ أَطْعَمَ غَيْرَهُ، وَإِنْ شَاءَ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَمَّا إِذَا أَجْلَسَ عَلَى مَائِدَةٍ، كَانَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ<sup>(36)</sup>. وفي الحديث أن صاحب الدار إذا ضيف عنده بعض إخوانه فله أن يأذن أو يمنع من لم يدعه لتلك الضيافة ولذلك بين رسول الله ذلك الموقف ليكون جزءا من أخلاق الضيافة.

جاء في زوائد أبي يعلى عن ما يقدم للضيف، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ وَكَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَتَسَخَّطَ مَا قُرِبَ إِلَيْهِ) قَالَ أَبُو عَوَانَةَ قَالَ: صَنَعْتُ طَعَامًا فَدَعَوْتُ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشَ فَبَلَغَنِي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ وَضَّاحًا دَعَانَا إِلَى عِرْقٍ غَائِرٍ وَرَمَانٍ حَامِضٍ قَالَ: فَلَقِيتُ رَقَبَةَ بَنٍ مَسْقَلَةً فَشَكَوْتُهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَكْفِيكَ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، دَعَاكَ أَخٌ مِنْ

إِخْوَانِنَا فَأَكْرَمَكَ ثُمَّ تَقُولُ: عَلَى عِرْقٍ عَائِرٍ وَرَمَانٍ حَامِضٍ؟ أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا شَرَّسَ الطَّبِيعَةِ، دَائِمَ الْقُطُوبِ، سَرِيعَ الْمَلَلِ، مُسْتَحِفًّا بِحُقُوقِ الزُّورِ، كَأَنَّكَ تَسْعَطُ الْخَرْدَلِ إِذَا سُلِّتَ الْحِكَايَةُ.<sup>(37)</sup>

قال مُحَمَّدُ بْنُ فَتوح الأندلسي: كتب بعض الأدباء إلى بعض إخوانه يشاوره في قصد بعض الرؤساء تأميلا له واستدعاء لئائله، وكان معروفا بالبخل، فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، كتبت إلي تسألني عن فلان، وذكرت أنك هممت بزيارته، وحدثتك نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعل أمتع الله بك! فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان من الله، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلوب إلا من سوء التوكل على الله، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله، لأنه رجل يرى التقدير الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، وأن الاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف الذي يعذب عليه، وإن بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن، والبصل بالسلوى، إلا لفضل أحلامهم وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضيافة مدفوعة، والهبة مكروهة، وأن الصدقة منسوخة، وأن التوسع ضلالة، والجود فسق، والسخاء من همزات الشياطين، كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الأولى<sup>(38)</sup>. هذه الاستشارة الأخلاقية قدمها ناصح لأخ عزيز وذكر فيها ما تنطوي عليه أخلاق الرجل الذي أراد زيارته لأنه رئيسا في قومه، وإن من مقومات الرئاسة أن يكون سيد القوم سخيا كريما، فكانت مثلبة الضيافة تؤخر ولا تقدم موضع صاحبهما ولو كان سيذا في قومه.

قال الأصمعي: أبخل أهل خراسان أهل طوس، وكانت قرية من قراها قد شهر أهلها بالبخل، وكانوا لا يقررون ضيفا، فبلغ ذلك واليا من ولايتهم، ففرض عليهم قرى الضيف، وأمرهم أن يضرب كل رجل منهم وتدا في المسجد الذي يصلي فيه، وقال: إذا نزل ضيف فعلى أي وتد علق سوطا أو ثوبا فقراه على صاحب التود، وكان فيهم رجل مفرط البخل، فعمد إلى عود صلب، فملسه وحدده وصيره في زاوية المسجد، ووتده منصوبا ليزل عنه ما علق عليه، فدخل المسجد ضيف، فقال في نفسه: أن يكون هذا التود لأبخل القوم، وإنما فعل هذا هربا من الضيافة، فعمد إلى عمامته، فعقدتها على ذلك التود عقدا شديدا، فثبتت، وصاحب التود ينظر إليه قد سقط في يديه، فجاء إلى امرأته مغتما، فقالت: ما شأنك؟ فقال: البلاء الذي كنا نعيد عنه، قد جاء الضيف ففعل كذا وكذا، فقالت: ليس لنا حيلة إلا الصبر، واستعانة الله عليه وجعلت تعزيه، واجتمع بناته وجيرانه متحزنين لما حل به، وكان أمر الضيف عندهم عظيما، فعمد إلى شاة فذبحها، وإلى دجاجة فاشتواها، وإلى جفنة فملأها ثريدا ولحما، فجعلت امرأته وبناته وجاراته يتطلعن من فروج الأبواب والسطوح إلى الضيف وأكله، وجعلوا يتبادرون: قد جاء الضيف، ويلكم، قد جاء الضيف.<sup>(39)</sup>

المستفاد من هذه القصة إن الضيافة من لوازم اكمال بناء المجتمع أخلاقيا، ولأجل ذلك أمر الوالي أن يحفظ رعاياه للضيافة حقها، باعتبارها سمة مشتركة بين الأمم فلا يريد لأمته أن تقتصر عن باقي الشعوب في هذا الجانب، لأن البخل يعرض أصحابه للجهاء، وأن الكرم والجود من صفات الإنسانية ودواعيها.

## الخاتمة:

أدب الضيافة من موروّثات الأخلاق الإنسانية المنقولة عبر التاريخ فهي سفير دائم للأمم والشعوب، وشريك أصيل لحسن النوايا وطيب النفوس، وللضيافة دور أخلاقي تطّلع به في المجتمعات في التواصل بين البشر، وهذا مؤشر لكفالة الاستقرار والوثام، وتثبيت الروابط الأسرية، وبناء الثقة بين العباد، ومبادرة روحية ويد بيضاء، فالضيافة من مبادئ الإغاثة وأصول العون الإنساني من الأعمال الطوعية، وتعبير عن الوحدة والتكامل والترابط الفطري، فهي تاج على رؤوس الشعوب والقبائل تعبر عن العبادة والعادات والتقاليد، فهي رسالة كبرى بين أمة وأمة ومجتمع وآخر ودولة وأخرى، وعظة وتربية بين جيل وجيل وسالف وخالف وقديم وحديث، فهي من صميم تعاليم الإنسانية ومن أعلى راياتها المحمولة من بني الإنسان، فهي تحارب الجوع والعطش وتوفر المأوى، وهذا من أدب الطوارئ الذي شكل له العالم اليوم جمعيات ومؤسسات طوعية تعمل بأرقى أساليب اللطافة الإنسانية، ولقد جاءت معاني الضيافة وآدابها لتحمل الحفاوة والبشر وحسن الاستقبال فكانت سفيرا للإنسانية، ومبعوثا للأخلاق الطيبة، وترجمانا للنوايا الحسنة، والضيافة من شأن الكبار في الجاهلية، فكانت لا تنطفئ نارها ولا تندثر آدابها، وهي رسالة إنسانية بين الشعوب والقوميات والأمم، ولقد امتدت معانيها إلى دول العالم بآدابها وأساليبها، وكانت الضيافة محل الفخر والمدح والهجاء والوعيد، وكانت سببا للفتنة والقتال والإحتراب، كما كانت محل التندر والتسلية، إن الأضياف في القرآن محل حماية وإكرام من الله تعالى وهي من المؤشرات الأولى لحقوق الإنسان في القرآن والسنة النبوية، والأضياف من ملائكة الرحمن هم من خير الوفادات أتوا بالمسرة والمواساة، فإله يكرم وفادتهم ويؤيدهم بنصره، والضيافة ثابتة في حق من خرج في سبيل الله وبعض الناس يفوت عليهم كرم الضيافة فالنفس الكريمة تقابل الإحسان بالشكر والامتنان، وتقابل المنع والحرمان بالإكرام والإحسان، ولقد خففت السنة عن صاحب الدار المعسر وحثت على ستره، والضيافة من مقومات الرئاسة ولوازمها ومن حرم لطافة الضيافة فقد حرم الإنسانية.

## النتائج:

1. أدب الضيافة من موروّثات الأخلاق الإنسانية فهي سفير للأمم والشعوب، وشريك لحسن النوايا.
2. تطّلع الضيافة بكفالة الاستقرار، وتثبيت روابط الأسرة، وبناء الثقة، ومبادرة روحية ويد بيضاء.
3. الضيافة من مبادئ الإغاثة وأصول العون الإنساني من الأعمال الطوعية، في أدب الطوارئ.
4. الضيافة عبادة وعادة وتقليد، ورسالة تربوية وتكافل وحرب للجوع والعطش ومأوى من التشرد.

5. الضيافة حفاوة وبشر، وسفير للإنسانية، ومبعوث للأخلاق، وترجمان للنوايا الحسنة.
6. لا تنطفئ نار الضيافة في الجاهلية، وكانت محل الفخر والمدح والهجاء والوعيد، والفتنة والتندر.
7. الضيافة في القرآن والسنة من لوازم حقوق الإنسان.
8. الأضياف من الملائكة من خير الوفادات تأتيون باللطافة والمسرة والمواساة، والله يؤيدهم بنصره.
9. الضيافة من مقومات الرئاسة ولوازمها ومن حرم لطافة الضيافة فقد حرم الإنسانية.

#### التوصيات:

1. التمسك بكرم الضيافة وحسن المعاملة.
2. الالتزام بمنهاج الكتاب والسنة فهما جماع الأخلاق وفيهما بيان معاني الضيافة.
3. الاطلاع علي التراث الإسلامي والعربي للاستزادة من آداب الضيافة.



## الهوامش:

- (1) حبيب بن أوس الطائي، الوَحْشِيَّات وهو الحمَّاسَة الصُّغرى، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص42
- (2) يوسف بن سليمان الشنتوري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص87
- (3) رزق الله شيخو، مجاني الأدب في حقائق العرب، مطبعة الآباء، بيروت، 1913م، ج6، ص191
- (4) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج1، ص33
- (5) الخالديان، محمد وسعيد، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، 1995م، ص100
- (6) عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والاضاد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ص88
- (7) أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م، ص655
- (8) المعافي بن زكريا النهرواني، الجليس الصالح الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1426هـ، 2005م، ص262
- (9) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، ص203
- (10) علي بن محمد التبريزي، شرح ديوان الحماسة، دار القلم، بيروت، ص91
- (11) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص605
- (12) مناهج جامعة المدينة العالمية، الأدب المقارن، جامعة المدينة العالمية، ماجستير، ص530
- (13) علي بن أحمد المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417م، ص537
- (14) صبح الأعشى، مرجع سابق، ج4، ص60
- (15) محمد بن أحمد بن منصور، المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ، ص191

- (16) أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، ج1 ص175
- (17) يحيى بن حمزة الحسيني، الطراز لأسرار البلاغة، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ، ج2، ص121
- (18) إبراهيم بن محمد الزهري، شرح معاني شعر المتنبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1412هـ، ج1، ص175
- (19) علي بن عبد الله الغزولي، مطالع البدور ومنازل السرور، ص165
- (20) المرجع السابق
- (21) محمد بن علي بن خمارويه، فص الخواتم فيما قيل في الولايم، ص3
- (22) سورة هود، الآية 78
- (23) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى هجر، 1420هـ، 2000م، ج12، ص506
- (24) سورة الحجر، الآية 51-56
- (25) الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي إحياء التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ، ج3، ص61
- (26) سورة الكهف، الآية 77
- (27) محمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ، 1964م، ج11، ص24
- (28) سورة الذاريات، الآية 24-29
- (29) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج7، ص376
- (30) سورة القمر، الآية 37-40
- (31) أحمد بن محمد بن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الناشر، حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة 1419هـ، ج5، ص531
- (32) أبو داؤود الطيالسي، مسند أبي داؤود، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى، 1419هـ، 1999م، ج4، ص289، رقم 2683
- (33) أحمد بن شعيب النسائي، السنن الكبرى للنسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ، ج9، ص379، رقم 10801
- (34) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3، ص1353، رقم 48

- (35) أحمد بن مروان الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1419هـ ج 5 ص 133
- (36) الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ 1983م، ج 9، ص 145
- (37) نورالدين بن علي الهيثمي، المقصد العلي في زوائد أبي يعلى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 3، ص 29، رقم 1025
- (38) الطبعة الأولى، 1421هـ 2000م، ص 116
- (39) المرجع السابق، ص 210